الفصل الرابع

البيّنة - الحقيقة الواضحة
القيّمة - التعاليم الدائمة

البيّـــنة.. مصـــطلح قـــرآني ينطبق على الحقيقة الواضحة التي تتميز بصفاتها المتألقة والمبهرة، وكأن الشمس قد بزغت وبددت الظلمة. وتظهر البيّـــنة مـــع ظهـــور جميع أنبياء الله ورسله، الذين تبدأ بظهورهم مرحلة جديدة من النور والضياء والتنوير. والبيّنة لا تتعلق ببداية الإسلام وحده، وإنمـــا تتعلق ببداية جميع التجليات الربانية والرسالات السماوية. وعندما يـــأتي رسول من عند الله تعالى ليحدث ثورة روحية في المجتمع، فإنه هو نفسه يكون تجسيدا للبيّنة التي يأتي بها.

﴿فِيهَا كُتُبٌ قَيِّمَةٌ﴾ (٩٨ البيّنة:٤)

القيّمة.. مصطلح آخر يُعبر عن ذلك الجزء من تعاليم النبي التي تشكل لب كل دين، والتي تتميز بصفة الدوام وتتحدى كل تغيير. وجميع رسل الله ﷻ.. حســـب مـــنطوق سورة البيّنة (رقم ٩٨) يأتون بنفس الأصول الموجـــودة في كل دين. وهذا يعني أن آدم عليه السلام، وهو الرسول الأول من الله تعـــالى، لم يكن يختلف في هذا الشأن عن أي رسول آخر ممن جاءوا بعـــده. والقـــيّمة هي الرابطة وحلقة الوصل بين جميع الأديان السماوية. وحسب ما تُبيّنه سورة البيّنة.. فإن دين آدم عليه السلام، أول الأنبياء، لا بد أن يكـــون في توافق تام من ناحية الأسس والأصول مع دين محمد ﷺ وهو آخـــر النبيين الذين أنزل الله عليهم شريعة من لدنه. ورغم هذا التوافق..

فقـــد تكون هناك فروق واسعة بين تعاليم وشرائع الأديان القديمة وتعاليم الأديـــان المـــتطورة التي تلتها في العصور المتعاقبة. ووجود الاختلاف في التفاصـــيل، رغم وجود اتفاق في الأسس، لهو في الواقع سمة حقيقية من سمـــات التطور. فمثلا.. في عالم الحيوان، ينطبق لفظ الثدييات على جميع الحـــيوانات مـــن ذوات الدم الدافئ، والتي تتشابه جميعا في أن لها عمودا فقـــريا وأطرافا. إلا أنها جميعا لا تتطابق تماما في التشابه، فالأغنام تختلف كـــثيرا عن البشر، وتختلف القطط عن القردة، رغم أنها جميعا تنتمي إلى نفس الفصيلة من الثدييات. وبالمثل.. استمرت الأديان في التطور حسب متطلـــبات الـــزمان ومقتضـــيات المكان وحوائج الأقوام التي نزلت لهم، فاكتسبت ألقابا وأسماء جديدة دون أن تتغير في جوهرها وأسسها. وتظل القيّمة دائما هي حلقة الوصل بينها.

والبيّـــنة كما أوضحنا فيما سلف ليست وصفا فحسب للحق الذي يأتي به النبي، ولكنها أيضا وصفا لصفاته الشخصية وأخلاقه الذاتية. فإن صـــدقه يكون من الوضوح بمكان حتى إنه قبل أن يعلن عن دعواه بكونه مـــبعوث الســـماء فإن المجتمع.. الذي وُلد بين جنباته ونشأ في ربوعه.. يشـــهد بالإجماع على صدقه. ولكن البيّنة لا تقتصر على هذا فقط، فإن صدق النبي المدعّم بالآيات السماوية، يصير من الوضوح بمكان.. حتى لا يـــبقى لـــدى المجتمع سبب معقول لإنكاره. ونفس هذا الصدق الواضح الـــذي لا يمكن إنكاره، والذي يُشكل دليلا بيّنا على كونه بالفعل مبعوثا مـــن عند الله تعالى، فإنه يكون أيضا.. ويا للسخرية ويا للعجب!.. هو سبب العداوة الشديدة والمقاومة الغليظة ضده، وخاصة من سدنة وكهنة النظام القديم في زمنه. وهم يرفضون قبوله لأنهم يرون فيه فجر يوم جديد لظهـــور الحق. وإذا سمحوا لهذا الفجر أن ينبلج، فإنهم سوف يفقدون في نـــوره زعامـــتهم وسيطرتهم على الجماهير، وبذلك ينهار النظام القديم لســـلطتهم الدينـــية. وهـــذا التهديد القوي لوجودهم كطبقة منتفعة من

وظيفـــتها.. هو الذي يدفعهم إلى أن يتناسوا خلافاتهم التي تمزق صفوفهم وأن يقفـــوا جميعا في جبهة واحدة للمقاومة بكل الوسائل، مهما تدنت هـــذه المقاومة واتصفت بالخسة والضعة. وحينما تفشل كل الضوضاء، وصـــيحات التهديد بالويل والثبور وعظائم الأمور، التي يطلقونها لإخافة النبي.. تماما كما تفشل صيحات القردة في إخافة الفهد.. فإنهم لا يجدون في جعبتهم من وسائل سوى اللجوء اليائس إلى العنف والقتل والإرهاب، ولكـــنهم رغم كل قوتهم وجميع جهودهم لا يستطيعون أبدا أن يهزموا البيِّـــنة. فـــإن قدرة البيّنة على الفوز والانتصار ليس في مجرد كونها تتميز بالحق والصدق فحسب، بل الأكثر من ذلك أن الله مالك الملك.. القويّ الأعظـــم تبارك وتعالى.. يؤيدها وينصرها. وهذا التأييد الذي تلقاه البيّنة يسمو عن الزمان، ويعلو عن المكان، ولذا فهي دائما وأبدا تسود وتنتصر في نهاية الأمر، وتصير هي المبدأ الراسخ الذي تدين به الأغلبية من الناس. وكون المرء في جانب البيّنة يعنى أنه في جانب الحياة، وكونه على الجانب المعاكس لها يعني الهلاك والدمار.

والبيِّـــنة ليست من طراز الحقيقة المطلقة (absolute truth) التي تشكل موضـــوعا للمناقشـــات الفلســـفية، ولا هي تشبه انبثاق الأفكار المحضة (absolute ideas) الـــتي تنضـــج وتتطور تدريجا بعد أن تنجح في مواجهة تحديات العصور المتعاقبة. إن صفة الذكاء والإبهار التي تتمتع بهما البينة إنما تتلقاهما من الوحي الإلهي منذ بدايتها.

كذلـــك فـــإن كلمة البيّنة لها مدلولات أخرى. فهي تعمل كظاهرة دافعة تعمل على زيادة الإيمان والتقدم الروحاني، وهي ليست شيئا خاملا، ولكـــنها مـــتجددة ومـــتطورة.. بل هي عصب التطور والتقدم. وجميع حـــركات الأنبـــياء تنبثق وتنبع من البيّنة. والبينة مشتقة من مصدر يعني "التمييز" أيضا، وهذا المعنى مشترك بينه وبين مصطلح آخر وارد في القرآن الكـــريم وهو "البيان". والبيان هو القدرة على الكلام الذي له قوة التمييز

بين معنيين، ويستطيع التعبير عن الفكر الإنساني بأسلوب واضح. والجدير بالانتباه أيضا أن "البيان" مثل "البينة"، مصدره هو الله ﷻ كما ذكر ذلك القرآن الكريم في الآية التالية:

﴿خَلَقَ الإِنْسَانَ ۞ عَلَّمَهُ الْبَيَانَ﴾ (٥٥ الرحمن:٤-٥)

وعلى هذا يتبين بجلاء أن القدرة على الكلام هبة من عند الله تعالى، أنعم بها سبحانه على الإنسان، الأمر الذي يعني بالضرورة أن اللغة الأولى التي تعلمها الإنسان هي اللغة التي علمه الله بنفسه إياها. وفي ضوء هذه الحقيقة نتبين أن قدرة الإنسان على الكلام ليست مبهمة كما كان من المفروض أن تكون لو لم يعلّمها اللهُ تعالى الإنسانَ. إن القدرة على الكلام هي التي تفصل بين الإنسان والحيوانات الأخرى بفاصل كبير واسع، لم تستطع نظرية التطور توضيحه مهما اتسع نطاقها. وعلى هذا فإن البيان، أي القدرة على الكلام، لا بد وأن يكون هبة الوحي الإلهي.

وهكذا.. إن كلا من البيان والبيّنة له نفس المصدر المشترك، ولكليهما أيضا نفس القدرة على التمييز بين الحق والباطل. ورغم هذا التشابه.. فإن هناك فارقا متميزا بين الاثنين. فبينما يرتبط البيان على الدوام بالتعابير اللفظية، فإن البيّنة ليست محصورة في التعابير اللفظية وحدها. نعم قد يحدث أحيانا أن تحمل البيّنة بعض التعبيرات اللفظية أيضا، ولكن في أحيان أخرى تظهر البيّنة وتتجلى بغير وسيلة الكلام. ويشبه هذا التجلي الصامت للبيّنة تألُّقَ ولمعان شمس الظهيرة التي تستنير بضوئها جميع التعاليم السماوية الأزلية. وبينما هي من ناحية تستمد قوتها من الله تعالى، فإنها من ناحية أخرى تمد العون والتأييد لمن يميل إليها ويستند عليها.

والمصطلح الآخر وهو "القيّمة" ينطبق على جميع التعاليم الأساسية التي تتميز بخاصية الدوام. وعند ذلك يبدو أن المصطلحيْن يندمجان في معنى واحد. والتعبيرات الفلسفية عن المطلق أوالشمولية الجامعة للقيم يمكن

أيضا أن تنطبق تماما على القيم التي عُبّر عنها بالقيّمة في المصطلح الديني. ولكـــن السؤال الذي يجب أن نبحثه الآن من زاوية دنيوية خالصة هو ما إن كانـــت هناك أفكار أو قِيَم يمكن في الواقع أن توصف بأنها مطلقة أو أنهـــا شـــاملة جامعـــة. إن جميع المفكرين البارزين تقريبا ممن ينتمون إلى مدرسة الاشتراكية العلمية يرفضون الحقيقة المطلقة للأفكار أو القيم كلية. وهـــم يفعلون هذا فقط لعدم التوافق بين الحقيقة المطلقة ورؤية ماركس للمادية الجدلية. ولكن تعاملهم اليومي مع حقائق العالم المادي المحيط بهم لا يجعل لهم أي تبرير لرفضهم الكامل لفكرة الحقيقة المطلقة.

إن اللـــيل يتبع النهار، والنهار يخلف الليل. النار تحرق.. والماء يطفئ النار. إحساسنا بالبرد والحرارة، بالحزن والفرح، شعورنا بالجوع والشبع، بالعطش والارتواء، ومئات المشاعر والمدركات الأخرى لا تحتاج إلى عالم فطين مكين لإثبات وجودها وحقيقتها. إن هذه الأمور جميعها وببساطة شديدة موجودة بلا تغيير، وبدون اعتراض، وبغير حاجة إلى وسيط يبرهن لنا على كينونتها ويثبت لنا وجودها. وهذا الوجود المطلق متصل اتصالا دائمـــا بقدرة الإنسان على الإدراك. إن فكرة الليل والنهار تتطلب وجود البصـــر لإدراكهـــا، ولكـــن ماذا عن هؤلاء الذين سُلبت قدرتُهم على الإبصـــار؟ إن إدراكهـــم للأمور لا بد أن يختلف بالنسبة لأولئك الذين يـــنعمون بقـــدرة على الإبصار. وهذا قد يثير الشك في أن ما نعتبره من المدركـــات الأولية البسيطة قد يكون نسبيا في طبيعته. وهناك بون شاسع بـــين أقصـــى الطرف الذي يقوم على الشك، والطرف الآخر الذي هو اليقين المطلق. وكل من الشك واليقين قد يتحرك في أي جهة فيقل الشك إلى أن يـــنعدم ويتحول إلى يقين ثم يكون يقينا مطلقا، أو يشوب اليقين المطلق شائبة فيفقد إطلاقه، ثم يقل اليقين إلى أن ينعدم ويتحول إلى شك، وهكـــذا. وكل هذا يتوقف على مدى وضوح الرؤية لدى الرائي ومدى الضـــوء المتاح لـــه. ولكن هذه الشكوك تنبت في بعض الحالات الخاصة

فقط، وعند مقارنتها بالقدرة العامة الشاملة للرؤية لدى جميع الناس، فإنها لا تُشكل سوى نسبة قليلة ضئيلة لا وزن لها، مما لا يغير شيئا من الإدراك العام الْمُجمع عليه.

و لم يصل الإنسان إلى هذه المرحلة من اليقين فيما يتعلق بهذه الأمور الأولـــية البســـيطة فقط، بل هناك الكثير من الأمور الأكثر أهمية والأشد تعقـــيدا يمكن أن توصف بأنها مطلقة أيضا. فمعظم معلوماتنا المتقدمة في الكيمياء والفيزياء اليوم تنتمي إلى هذه المجموعة. وهي تنمو باضطراد بلا شـــك، وغالبا ما تكون بغير تناقض مع المفاهيم المعروفة سابقا والقائمة على الحقائق العامة. نعم قد تحدث بعض التعديلات والتغييرات ولكن في القشـــور فقط وليس في اللب والجوهر. ولا يُلقي الظن أبدا بظلال الشك على مجموعة الحقائق الأساسية التي ثبتت صحتها، وإنما يحدث ذلك فقط في بعض المجالات المحدودة والمحصورة من البحوث المتقدمة. وبالتالي فمن الممكـــن استنتاج بدون تردد أنه على الأقل في المجال الدنيوي، فإن فكرة المطلـــق ليســـت سليمة فحسب، بل هي حقيقية يقينية مضطردة. أما في أمـــور الإيمـــان والمعـــتقد، فلا يمكن ادعاء نفس الشيء. إذ من الصعب العسير، إن لم يكن من المستحيل، للمؤمنين تحديد خط فاصل بين ما هو حـــق ومـــا هو خيال في معتقداتهم. وفي أغلب الأحيان يشب هؤلاء في مجـــتمع أو في وسط يؤمن بهذه المعتقدات، وقبل أن تكون لديهم القدرة عـــلى الحكم والتمييز بين ما هو صحيح وما هو باطل في معتقداتهم، فإن هـــذه المعتقدات تصير جزءا متكاملا من الإيمان لديهم. والقلة القليلة التي تســـتيقظ من سباتها العميق، وتخرج من إسار الغفلة، وتجرؤ على التفكير بعقلانـــية.. إنمـــا تفعـــل ذلـــك على حساب المعتقدات الدينية السائدة والشائعة، غير أنهم نادرًا ما يعترفون بذلك علانية، بل يستمرون في ارتداء نفس الجلباب تحت نفس المسميات، حتى إنه رغم أنهم فقدوا إيمانهم بما هو شائع، فإن دينهم يبقى كرمز للوحدة فحسب. وهذا بكل أسف هو حال

ومـــآل جمـــيع الأديان التي تنكر استعمال العقلانية، أو تستنكر أن يكون للعقلانية أي دور في آليات الحكم على صحة وحقيقة معتقداتهم.

وعودة إلى مناقشة موضوع الانتقال المتزايد والمستمر للمظنونات إلى يقينـــيات، واليقينـــيات إلى حقائق مطلقة.. لا بد أن نعترف بأن نفس الحقيقة العامة.. أي أن كل شيء خاضع للتغيير.. قد أدى ببعض الفلاسفة إلى الندم على فكرة "الحقيقة المطلقة". فليس من استنتاج يمكن أن يكون مطلقـــا وخاليا من تأثير التغيير الناتج عن عامل الزمن والقدرات المتباينة للـــرائي. وإذا جاز قبول هذا المنطق، فلا بد حينئذ من إنكار كل حقيقة، ورفض كل شيء، باعتبار أنه من المحتمل ألا يكون صحيحا. وبالتالي فلا نؤمن بشيء على الإطلاق. إن مثل هذه الفلسفة تؤدي إلى كارثة كاملة في الحـــياة اليومية. فبأي مقياس يُعتمد عليه بشيء من اليقين يمكن الحكم عـــلى أن الهاويـــة الـــتي يراها الإنسان عند طرف جبل شاهق هي فعلا هاويـــة.. يقيـــنا؟ وبأي معيار يمكن للمرء أن يكون على يقين بأن الحية الســـامة الـــتي تعترض طريقه هي في الواقع ما يبدو في الظاهر؟ إن جميع الأحـــوال التي تهدد الحياة وسلامتها.. نجد أنه حتى أكثر المتشككين ريبا سوف يقبل حكم الخبرة الإنسانية العامة. وهذه الخبرة الإنسانية العامة هي الـــتي تتقدم على الدوام والمثابرة في اتجاه المعرفة المطلقة، وعند كل مرحلة زمانـــية لا بد من قبول حكمها. وليكن اسمها احتمالا إن لم يكن مطلقا، ولكـــن لنـــتذكر أن هذا الذي يُسمى احتمالا.. هو الذي يحكم المصير الإنســـاني بصلابة مطلقة. فليس من المعقول أن ينكر الإنسان ما يبدو أنه حقيقة.. خشية أن يثبت زيفه في المستقبل.

ومع كل ذلك، فإن معظم المدركات قد نضجت وتأصلت في عملية الارتقاء المعرفي لدى الإنسان، حتى إن يد التغيير أو الشك لا تستطيع أن تـــنال مـــنها بعد ذلك. كذلك فإن تصرف ومسلك الكثير من القوانين الكيميائـــية والفيزيائـــية، بعد أن تم فهمها، فإنها تظل على ما هي عليه.

وجهلنا لبعض كيفيات عملها لا يُفسد ولا يُغير العلوم التي اكتسبناها في معظم مجالات عملها. وبالرغم من حقيقة أن حركة الأجرام السماوية وقوانين الجاذبية قد صارت معروفة إلى أدق تفاصيلها المدركة، فإن مفاهيم نيوتن لقوانين الحركة لا تزال سارية وفعالة في نطاقها. وعلى هذا فإن قوانين حركة الأجرام السماوية هي قوانين مطلقة كما كانت دائما في نطاق عملها وفاعليتها. وقوانين الحركة في الجزيء الذري هي أيضا مطلقة في نطاق عالمها المتناهي في الصغر. وعلى ذلك فلا تعارض ولا تناقض بين القوانين التي تحكم الكون والقوانين التي تحكم عالم الجزيء والذرّة. إن مجالهما مختلف والنطاق الذي تعمل فيه كل منها يختلف أيضا.. وما اكتشفه الإنسان ليس سوى أن قوانين نيوتن للحركة تنطبق على الكون فقط. وكلا النوعين من القوانين قوانين مطلقة، وهي موجودة بصورة مستقلة بصرف النظر عن قابلية الإنسان أو عدم قابليته لفهمها. وعلى هذا.. فإن الحقائق المطلقة ليست مجرد نتاج للعقل الإنساني أو من صنع خياله، بل إنها موجودة بصورة مستقلة بغير أن تعتمد في وجودها على وجود الإنسان نفسه.

وحين نعود إلى أقوال القرآن المجيد فيما يتعلق بموضوع العقلانية وتأثيرها على الحقائق الدينية، فإننا نلفت أنظار القارئ إلى الآيات التالية من القرآن المجيد التي تنفي تماما كل احتمال لوجود أي تناقض في الكون الذي خلقه الخالق ﷻ:

﴿مَا تَرَى فِي خَلْقِ الرَّحْمَنِ مِنْ تَفَاوُتٍ ۖ فَارْجِعِ الْبَصَرَ هَلْ تَرَى مِنْ فُطُورٍ ۞ ثُمَّ ارْجِعِ الْبَصَرَ كَرَّتَيْنِ يَنْقَلِبْ إِلَيْكَ الْبَصَرُ خَاسِئًا وَهُوَ حَسِيرٌ﴾ (٦٧ الْمُلك:٤-٥)

كذلك فإن القرآن المجيد يؤكد على عدم وجود أي تناقض بين كلام الله تعالى، كما يقول ﷻ:

﴿أَفَلا يَتَدَبَّرُونَ الْقُرْآنَ وَلَوْ كَانَ مِنْ عِنْدِ غَيْرِ اللهِ لَوَجَدُوا فِيهِ اخْتِلافًا كَثِيرًا﴾ (٤ النساء:٨٣)

إن كلام الله الذي هو الحقيقة الموحى بها، وخلْقَ الله الذي هو الكون المادي، يجب أن يكونا في توافق كامل بعضها مع بعض. وعلى ذلك فإن الوحي الإلهي لا يمكن أبدا أن يتناقض مع قوانين الكون الطبيعية، فكلاهما ينبعان من منبع الحكمة الأزلي ﷻ. والاستبعاد التام للتناقض إنما هو طريق آخر للموافقة على حُرمة مبدأ العقلانية وتأييده.

وعلى هذا.. حينما وحيثما كان مجال فهم العلماء التجريبيين للكون المادي صحيحا، فإنه من المستحيل لكلام الله تعالى أن يناقضه. والعكس أيضا صحيح. وبالتالي عندما نشاهد اتفاقا كاملا تاما بين الاثنين، فإن نوعية حقيقتهما المطلقة تصير مطلقة على أوسع نطاق.

وفي ضوء كل ما سبق.. نكون الآن على استعداد لتناول موضوع الوحي القرآني، واختبار مدى مصداقيته على محك العقلانية والفكر.. موضوعا بعد موضوع.